

إسبانيا وشمال افريقيا *

(من حل الخلافات دبلوماسية الى الإدارة الاستعمارية)

بقلم : فكتور مرا لس لركانو

ترجمة : د. ميلود سفاري

معهد علم الاجتماع - جامعة قسنطينة - الجزائر

مرحلة حل الخلافات دبلوماسية (١٧٦٠ - ١٨٣٠) :

مرت العلاقات بين اسبانيا والايالات العثمانية ، طرابلس وتونس والجزائر وبينها وبين سلطنة المغرب ، بتغيرات هامة خلال القرن التاسع عشر . فبعد أن كانت هذه العلاقة ذات طبيعة عادية بين دول ذات سيادة عبر وساطة الباب العالي - بالنسبة للايالات التابعة للامبراطورية العثمانية - فانها تحولت الى ما يمكن وصفه بالعلاقة الاستعمارية ، أعنى أنها أصبحت تخضع لعلاقة عابرة يحكمها المزاج ، متجاهلة بذلك المصالح القائمة بين هذه الدول التي كانت على درجات متفاوتة في السيادة على ترابها وسكانها وثرواتها واستقلالها في اتخاذ القرارات ، أكثر من خضوعها للقواعد التي تحكم العلاقات بين الدول في التمتع بالسيادة الكاملة وبالتالي التساوي في الحقوق والواجبات . فكيف جرى هذا التحول ؟ .

باختصار ، يلاحظ أن عددا من الوزراء والملوك الاسبان - فرديناند السادس Ferdinand VI وتشارلز الثالث Charles III - قد حاولوا تمتين العلاقات التي تربط اسبانيا بالمغرب خاصة أثناء حكم محمد بن عبد الله (١٧٥٧ - ١٧٩٠) ، وكان الاهتمام الرئيسي للاتفاقيات والمعاهدات التي أمضاها ممثلو الدولتين - بعد اجراء كافة التعديلات الضرورية - على ثلاثة أنواع :

٢ - إقرار حالة السلم بين الدولتين ، وحالة السلم هذه كثيرا ما تم خرقها منذ أن تولت الاسرة العلوية الحكم في المغرب في ١٦٣٠ .

دراسات تاريخية ، ٢٧ و ٢٨ ، أيلول - كانون الاول ١٩٩٠

المجلة التاريخية المغربية ، العدد ٣١ - ٣٢ ، السنة العاشرة - كانون الثاني - ديسمبر ١٩٨٣
ص ٢٣١ - ٢٣٥ .

ب - تحسين التبادل التجاري للبضائع عبر البحر بين موانئ المملكتين طبقا لما تملّيه الأسباب الجغرافية لتدعيم المصالح التجارية لكل أمة : طنجة ، تطوان - خلال معبر المضيق - مزغان (الجديدة) وموگادور (الصويرة) في الجانب المغربي ، الى قادش ، الجزيرة ، مالايا ، المرية ، في الجانب الاسباني .

ج - تحصين المراكز الاسبانية في سبتة ومليلة ، وهي المراكز المتبقية بعد انسحاب القوات الاسبانية من وهران سنة ١٧٩٢ والذي وضع نهاية للمصالح الاسبانية على خطوط بسواحل المغرب خلال مواجهتها الطويلة مع البحرية التركية في الفترة بين القرنين ١٦ و ١٧ (١) .

ويمكن القول بأن العلاقة بين بلاطي مدريد وفاس خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر كانت تحكمها قوانين دولية تُخرق في الممارسة أحيانا . فالاتفاقيات والمعاهدات التي أبرمت بين المملكتين في ١٧٦٧/١١٨١ هـ ، و ١٧٨٠/١١٩٤ هـ ، و ١٧٨٥/١١٩٩ هـ ، ١٢١٣/١٧٩٩ هـ قد ضمنت في العشريات اللاحقة للنصف الثاني من القرن التاسع عشر علاقات طبيعية كذلك التي كانت سائدة بين الأمم آنذاك (٢) .

لقد حاولت إيلات طرابلس ، وتونس ، والجزائر ، والوزير الاسباني للدولة والشؤون الخارجية تطبيع العلاقات أثناء حكم تشارلز الثالث Charles III ولم تكن الطريقة التي تم بها تحقيق هذا الهدف نابعة من رغبة ملحة وانما أملت الضرورة ، وتمثلت في التوثيق الكلاسيكي للروابط الدبلوماسية بين اسبانية والامبراطورية العثمانية . ان المعاهدة التي أبرمت في ١٤ أيلول (سبتمبر) ١٧٨٢ بين مبعوثي مدريد واسطنبول قد حققت تحسنا في الروابط السياسية والتجارية والبحرية بين عدوتين تقليديتين في القرون الماضية هما اسبانيا وتركيا (٣) . ومن بين ما تضمنته هذه المعاهدة البند السابع عشر الذي ينص على « أن الباب العالي يخبر الايلات العثمانية في شمال افريقيا ، الجزائر وتونس وطرابلس ، بمعاهدة السلام الجارية التي تم التوصل اليها بين بلاطي اسبانيا والباب العالي العثماني ، وبما أن الايلات المشار اليها لها هي الاخرى حق اقامة السلام ، فان عليها اقامة السلام مع القوة الاوربية المذكورة ، والباب العالي يبارك هذا السلام وسوف يصادق عليه . وللبرهنة على هذه النية فانه يوصي الايلات الثلاث بترسية أواصر الصداقة والسلام مع اسبانيا عن طريق ثلاثة فرمانات امبراطورية ترسل الى الوزير الاسباني في حال طلبها من كل منهم (٤) .

والحقيقة أن معاهدة السلام قد تم توقيعها سنة ١٧٨٤ مع طرابلس وسنة ١٦٨٦ مع الجزائر وسنة ١٦٨١ مع تونس ، وبالتالي استطاعت الدبلوماسية الاسبانية أن

تحقق واحدا من الاهداف السياسية البارزة للبلاد على الصعيد الخارجي ، أي تنظيم العلاقات مع الجيران الجنوبيين للمملكة المنتشرين عبر المغرب ، وهي منطقة ربطت اسبانيا بعلاقات كانت من القوة بقدر ما كانت مليئة بأحداث ظلت تحل بالحرب حيناً وبالمفاوضات الدبلوماسية أحيانا أخرى (٥) .

والواقع انه بعد حل الخلافات التي ما فتئت تكدر صفو العلاقات العادية بين اسبانيا وأقاليم المغرب الاسلامي - خاصة سلامة الملاحة في مياه المتوسط الغربية وأمن الرعايا المغربية والاسبان والسلك القنصلي المقيم على طرفي بحر AL- Boran* سؤال يبقى مطروحا : كيف حدث أن العلاقات التي سبق وصفها تحولت الى علاقة شبه استعمارية ؟ واية قوة ان كانت هناك ... ؟ قوة أدت الى احداث هذا التغيير ؟ لنلق الآن نظرة على العالم المحيط باسبانيا وشمال افريقيا لنرى ما اذا كانت هناك قوى محيطة ، فقد تلقي الساحة المتوسطية بأكملها الضوء على المسألة .

من فض النزاعات دبلوماسية الى الادارة الاستعمارية (١٨٣٠ - ١٩٠٦) :

كان القرن التاسع عشر مرحلة للتوسع الخارجي لكثير من الدول الاوروبية بغض النظر عن الاسباب الكامنة وراء هذا التوسع * وكنتيجة لهذا فقد حرصت القوتان على تقاسم بعض الاهداف الاستراتيجية خاصة في شمال افريقيا (٦) مما أدى الى وضع مجلسي وزراء البلدين على أهبة الحرب كما حدث في فاشودة مثلا ، سنة ١٨٩٨ . لقد كان حوض البحر الابيض المتوسط مبتغى لكل من بريطانيا وفرنسا كما أن التنافس لتحقيق سيطرة حاسمة على البحر القديم استمرت طيلة القرن التاسع عشر بالرغم من أن بريطانيا أخذت الصدارة فعلا في التجارة البحرية مباشرة بعد الحرب النابولونية ، ولم تتخل عنها الا بعد ١٩١٨ عندما أخفقت ألمانيا - مؤقتا - في أن تضع أسطولها على قدم المساواة مع الأسطول البريطاني (٧) .

ان مجرى المنافسات الدولية للحصول على التفوق في المياه المتوسطية من سنة ١٨٣٠ الى بداية القرن العشرين زاد من حدة جشع الاوروبيين وطمعهم في الساحل الافريقي وشواطئ بحر الظلمات (المحيط الاطلسي) وجاءت النتيجة النهائية لهذه المنافسة - على الاقل بين بريطانيا وفرنسا - في ربيع ١٩٠٤ عندما توصل كل من اللورد لانسداون Lansdowne ايرل كرومر ، القنصل العام بالقاهرة الى تحالف ودي

★ الطرف الاقصى من المتوسط .

★★ كانت بريطانيا وفرنسا على رأس القوى الاستعمارية مقارنة بعدد البلدان والشعوب التي كانت تحكم من لندن وباريس .

مع وزير الخارجية الفرنسي ثيوفيل ديلكاسية Théophile Delcassé والسفير بول كامبون Paul Gambon سفير الجمهورية في لندن .

وهكذا تم تدبير ما سمي بالاتفاق أو الوفاق الودي Intente Cardiale وقد جاءت السيطرة الانجلو - فرنسية على مصر والمغرب المتفق عليها سنة ١٩٠٤ لتختتم يومئذ الصراع الطويل على السيادة في شمال افريقيا . واثناء ذلك أدت الضغوط الاستعمارية الأوروبية من جهة وزيادة ضعف سيطرة الامبراطورية العثمانية على ايلاتها البعيدة من جهة أخرى الى سقوط إيالتى الجزائر (١٨٣٠) وتونس (١٨٨١) اللتين أخضعتهما قوات الحملة الفرنسية ومكر الدبلوماسية الغالية (الفرنسية) . أما المنطقة الثالثة في المغرب الاسلامي التي سقطت في يد الأوروبيين (الاوصياء) فكانت الامبراطورية الشريفة - أي المغرب الأقصى ، وهي أرض أقيمت عليها الحماية الفرنسية الاسبانية في نهاية سنة ١٩١٢ .

أمم تتراجع في أوروبا وأخرى تزداد سيطرة ، كلها أساءت حكم المجتمعات الاسلامية التي كانت تحاول مواجهة حرب المجتمعات الأوروبية الغربية المصنعة (٨) فماذا عن اسبانيا كصلة وصل طبيعية بين أوروبا الغربية وشمال افريقيا ؟

ان العلاقات بين اسبانيا (وشمال افريقيا) - بلدان المغرب الاسلامي قد تطورت بشكل متناقض طيلة القرن التاسع عشر ، ولا ننسى أن بعض الوجوه القيادية السياسية والعسكرية من منتصف القرن ، كانت تود أن تكون اسبانيا قوة أوروبية من الدرجة الاولى متناسين أن الاحلام وافكار الاماني تؤدي الى الاخفاق عندما لا تملك الوسائل لتحقيق توقعاتها ، وذلك لأن تدخل اسبانيا في الشؤون الداخلية للمغرب أسفر عن تجربة مريرة .

من المؤكد أن المغرب كانت الهدف الرئيسي الاوحد المحبذ للسياسة الخارجية الاسبانية التي تنتهجها تجاه جيرانها الجنوبيين فيما وراء مضيق جبل طارق منذ سنة ١٨٦٠ . ان فكرة التدخل في الشؤون الداخلية للامبراطورية الشريفة التي تبنتها فئة قليلة من العسكريين والسياسيين (والافريقيين) . قد تفوقت على المشاعر والعواطف الراضة لهذا التدخل التي سادت بقوة عند طائفة أخرى من السياسيين والمثقفين وجمهور المواطنين الاسبان . فلا بد إذن من القول بأن الاوساط الاسبانية المؤيدة لسياسة التدخل في الشؤون المغربية لم تكن أبدا متينة ايديولوجيا لذلك كان عليها أن تواجه المعارضة في البيانات المكتوبة وفي المظاهرات الشعبية على الاقل بعد سنة ١٩٠٩ . ولا يمكن نكران أن بعض القوى الداخلية من المجتمع الاسباني هي التي دفعت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بالبلاد الى شمال المغرب ، وقد أشرنا الى أن سياسة

اسبانيا تجاه المغرب قد أصبحت استعمارية بشكل واضح سواء من خلال ما كان يجري على شاطئ البحر المتوسط أو باندفاع القوى الوطنية المقتنعة بالبرنامج الذي طرحه Souedad de Africanistas y Colonistos - الذي تم انشاؤه في بداية الثمانينات من ١٨٨٠ - (٩) .

وقد طرحت المسألة منذ احتلال جيوش الجنرال أودنيل O' Donnell لتطوان في ربيع ١٨٦٠ كحملة تأديبية لاعادة الاعتبار لشرف الملك والبلاد وقد تضمن السؤال المطروح آنذاك : هل يجب على اسبانيا أن تأخذ دورا أكثر حيوية في المناقصة - الانجلو - فرنسية للسيادة على شمال افريقيا - أي المغرب - لتدافع عن وجهة نظر شبه الجزيرة ؟ أم أن عليها أن تحترم الوضع الراهن ، وتحافظ على أمن الدولة المجاورة ، بل وحتى اعلان نفسها المدافع الاوروبي عن هذا المبدأ ؟

لقد كانت القائمة بالاعمال ميري اي كولوم Merry y. Colom على اتصال دائم بوزيرها في مدريد منذ أن أخذ بزمام الامور بعد معركة تطوان ، وقد وضعت مرة حيثيات المسألة في الصيغة التالية : (يسير المغرب منذ ١٨٥٩ - ١٨٦٠ الى انهياره الذي هو حسب رأيي غير قابل للعلاج ، فالجهود الدبلوماسية بإمكانها أن تؤخر هذا التصعد شيئا ما لكن الداء ليس له دواء والحكومة الاسبانية التي توليه أهمية خاصة يتوجب عليها أن تتقدم خطوة خطوة في مسيرة الاحداث) (١٠) . إننا لنجد هنا نداء ذكيا للاهتمام بالاوضاع الداخلية المتردية للسلطنة، وتذكيرا لحكومة شبه الجزيرة بالواجبات التي يفرضها الجوار والروابط التاريخية . وإذا كان هذا المنحى في سياسة التدخل قد استمر ، علنا أو سرا ، الى نهاية القصة ، فان النظرة المتحفظة اي الراضية للتدخل قد وجدت لها مرتعا بين عدد من الاسبان ، بعضهم من أبرز الشخصيات في صنع الدولة الليبرالية مثل الزعيم المحافظ كانوفاس ديل كاستيللو Canovas del Castillo فبعد سنوات من مهمة ميري أي كولوم ، وجد كانوفاس أن عليه ان يدعم الاطروحة الراضية للتدخل أمام غرفة المندوبين في البرلمان الاسباني مصرحا بأن : (الحكومة تعتبر امبراطورية المغرب دولة ذات سيادة .. وهي لا تستطيع إذن أن ترفع راية تشيتت الوحدة الداخلية للمغرب المحمية في ذاتها علما بأنه في مقدورها أن تحدث في تلك الامبراطورية خلافا بواسطة التوسع الذي يمنحها حق الحماية والى حد الآن ليس في مقدورها أن تعلن لكل تابع للسلطنة بعض التذمر من ذلك الحكم ، وكذلك التوجه الى السلطات الاسبانية والمطالبة بانفصال مقاطعتها عن تاجنا هكذا بكل بساطة) (١١) .

على عكس النداء الاول نجد هنا تصريحاً بالغ الوضوح لاطروحة الراضين للتدخل في الشؤون التشريعية .

منذ الاحتفال بمؤتمر مدريد سنة ١٨٨٠ لضبط حق الوصاية على الرعايا الشريفيين من قبل السلطات القنصلية الأوروبية الى المصادقة على القرار النهائي لمؤتمر الجزائر سنة ١٩٠٦ المتعلق بتمويل المخزن وسبل المحافظة على النظام العام والامن الشخصي في الموانئ والمدن الرئيسية في المغرب فان التدخل الانجلو - فرنسي في شمال افريقيا عموما وفي شؤون السلطان المغربي عبد الحفيظ (١٩٠٨ - ١٩١٣) خاصة كان يتجه نحو فرض الحماية الفرنسية الاسبانية على المغرب .

وهكذا فان العنصر الاضعف من بين الدول الاستعمارية الأوروبية - وهي اسبانيا - قد حولت عن اقتناع وسبق اصرار نمط علاقتها مع جارتها الجنوبية ... التي كانت دولة كاملة السيادة اسميا .

وهكذا ايضا قدر على اسبانيا ان تصبح سيدا على شعب الريف ولو ان واقع الحال برهن على أن هذا السيد لم يكن على ذلك المستوى من اللين ، كما ان التلميذ (الشعب) كان اكثر تمردا مما كانت تفترضه وتتوقعه الاوساط الحكومية في شبه الجزيرة .

الحواشي

Instituto de estudios islamicos, v. XX (1979 - 1980) p. 78 .
Historico National Relativa al. Norte de. Africa. - Revista del.

الجزء الاكبر من مراسلات القنصلية الاسبان في عموم شمال افريقيا توجد في :
« Seccion de Estado » Archivo Historico National , Madrid .

أما عن هذه الفترة فيما قبل الاحتلال هناك ٦٩ رزمة خاصة بالجزائر (١٧٨٤ - ١٨٤٩) ، ١٨ رزمة خاصة بتونس (١٧٨٠ - ١٨٤٠) ، ١٣ رزمة خاصة بطرابلس (١٧٨٠ - ١٨٤٠) و ٨٠ رزمة خاصة بالمغرب (١٧٧٠ - ١٨٤٠) .
انظر :

Leon. Tello - **Indice Général de La Seccion de Estado, Madrid., 1973 .**

(١) انظر :

M - Laurido. Diaz - **El - Sultano de. Sidi Muhommed. b. Abdellah. Granada. 1970 .**

ولنفس الكاتب :

Marruecos en la Sugunda mitad del Siglo XVIII , Madrid. 1978.

(٢)

صورة شاملة عن الموضوع في

Fe. Byandel. al - **Mediterraneo y el - Mundo mediterraneo en la época. de Felipe. II . Mexico. V.II. pp. 278 - 79 -**

El - Korro , and M. de epalza **Oran et l' Ouest Algérien au XVIIIème Siécle , Alger 1978 .**

(٣)

M. ARIBAS PALAU « La documentation del - Archivo

Morroco Correspondence ...
Archivo del. Ministerio de
Asuntos Exteriores.

Diario de Sesiones del Congreso
Legislatura. 1879 - 80 - pp.
1769 - 76 .

لهذه الفترة شبه الاستعمارية في العلاقة بين
اسبانيا وشمال افريقيا (١٨٤٠ - ١٩١٢)
هناك مئات الوثائق في

«Correspondencia Con Consulados.

١٢ رزمة خاصة بالجزائر ، ٥ خاصة بتونس
و ٢ خاصة بطرابلس و ١٧ خاصة بالمغرب وفي
Seccion de Politica Exterior
(قسم السياسة الخارجية) ٩ رزم خاصة
بالجزائر ، ٣ خاصة بتونس وطرابلس و ١١
رزمة خاصة بالمغرب .

Archivo del Ministerio de Asu-
ntos Exteriores , Madrid.
M.J. Lozano and E. Romera ,
Gnia del Archivo del Ministerio
de Asuntes Exteriores, Madrid
1981 .

R. Robinson and. V. Gallagher
« Africa and the Victorians »
The Official Mind of imperlia-
lism London, 1981 .

P. Kennedy. **The Rise of Anglo**
German Antagonism - (1860 -
1914) - London 1980 - pp. 464
70 .

من أجل وجهة النظر المحلية ، انظر :

Abdellah Laroui , **L' Histoire**
de Maghreb.

Paris , 1970 - pp. 23 - 26 . and
271 . وما بعدها .

من أجل كافة القضايا المتعلقة بالموضوع انظر :

V. Morales Lezcano , el - Colo-
nialismo, Hispano - Francés en
Marruccos (1898 — 1927) .
Madrid . 1976 pp. 21 - 46 .

« Correspondencia del **Encar-**
gado de. Negocios de Espana
en Tanger » disp. No 61 (4 oct.
1864) bundle. No 1638 , in

*

*

*